**المحاضرة الثالثة: الحواضر الصحراوية الفاعلة في العلاقات بين المنطقتين:**

**مقدمة:** شهدت المنطقة الممتدة من حوض المتوسط شمالاً إلى ضفاف نهري النيجر والسنغال جنوباً نشوء منظومة حواضر صحراوية فريدة، لم تكن مجرد محطات عابرة للقوافل، بل مثلت "موانئ برية" متكاملة الأدوار، صاغت تاريخ التواصل بين بلاد المغرب والأندلس وبين ممالك السودان الغربي.

تتوزع هذه الحواضر وظيفياً ومكانياً لترسم خريطة طريق التجارة والارتحال؛ فبينما كانت وارجلان (ورقلة) تمثل العمق الاستراتيجي للشمال والمركز التجاري للمذاهب الإسلامية المبكرة، كان إقليم توات يضطلع بدور "العقدة المركزية" والمختبر التنظيمي الذي أبدع فقه المياه والقوانين المنظمة للأسواق الدولية في قلب القفر. وفي أقصى الغرب، برزت آزكي (أزوكي) كبوابة جبلية حصينة ومنطلقاً أيديولوجياً لحركة المرابطين التي أعادت رسم الخارطة السياسية للمنطقة، وصولاً إلى أودغشت التي كانت تمثل "خط التماس" الأول والمركز التجاري المتقدم الذي استقبل ذهب السودان الغربي وصدّر إليه قيم الحضارة الإسلامية وعماراتها.

إن دراسة هذه الحواضر تتجاوز البعد الاقتصادي الصرف؛ فهي مراكز "تثاقف" كبرى، انتقلت عبرها المذاهب الفقهية (المالكية والإباضية)، والأنماط المعمارية الطينية، والتقنيات الهندسية كالفقارات. لقد خلقت هذه المدن فضاءً معرفياً مشتركاً جعل من تمبكتو وجني امتداداً ثقافياً لفاس والقيروان وتلمسان، مما جعل الصحراء الكبرى -بفضل هذه الحواضر- فضاءً إسلامياً موحداً جغرافياً واقتصادياً وروحياً طيلة قرون من الزمن.

**1/ أودغشت:** أطلالها اليوم أوبقاياها متواجدة بالمنطقة المعروفة باسم "تغداوست" تبعد عن مدينة "تامشكط"الواقعة بمنطقة الحوض في موريطانيا بحوالي 34 كم، تُعد مدينة **أودغشت** (أو أوداغست) واحدة من أهم الحواضر البائدة في تاريخ الغرب الإفريقي، فهي لم تكن مجرد مدينة عابرة، بل كانت "ميناءً صحراوياً" يربط بين شمال إفريقيا وبلاد السودان (إفريقيا جنوب الصحراء).

**1. أودغشت قبل الاحتكاك الإسلامي: "موطن صنهاجة"**

قبل وصول طلائع التجار والفتح الإسلامي، كانت أودغشت مركزاً حيوياً لقبائل **صنهاجة** (وخاصة قبيلة لمتونة).

- **التأسيس:** نشأت المدينة كمركز استقرار للرحل في منطقة الحوض (موريتانيا الحالية) نظراً لوفرة المياه الجوفية وصلاحية أرضها للزراعة مقارنة بما حولها.
- **الاقتصاد البدائي:** اعتمدت في بداياتها على الرعي وزراعة النخيل، وكانت نقطة تلاقي للقوافل البدائية التي كانت تبحث عن الملح والذهب.
- **الوضع السياسي:** كانت المدينة تحت سيطرة زعامات قبلية صنهاجية، ولم تكن خاضعة لإمبراطورية غانا المجاورة في بدايتها، بل كانت تلعب دور "الوسيط" المستقل.

**2. مرحلة الاحتكاك والازدهار الإسلامي (القرن 3 - 5 هـ / 9 - 11 م)**

مع وصول الإسلام إلى المغرب وشمال إفريقيا، بدأت القوافل التجارية الإسلامية تتوغل جنوباً، وهنا تحولت أودغشت إلى مدينة عالمية بمقاييس ذلك الزمان.

**التطور التجاري والمعماري:**

- **مركز الذهب والملح:** أصبحت أودغشت المستودع الرئيسي للذهب القادم من مملكة غانا، والملح القادم من مناجم الصحراء (مثل "تغازة").
- **الهجرة العربية والأمازيغية:** استوطنها تجار من القيروان وتلمسان وسجلماسة، مما نقل إليها نمط العمارة الإسلامي (بناء المنازل بالحجر والطين المنظم).
- **الوصف الجغرافي:** وصفها الجغرافي الشهير **البكري** بأنها كانت مدينة كبيرة، بها أسواق عامرة، ومساجد، ونخيل كثير، وأرض تزرع بالقمح بفضل الآبار.

**التفاعل الثقافي والديني:**

- بدأ الإسلام ينتشر تدريجياً بين سكانها من الصنهاجيين والزنوج نتيجة الاحتكاك بالتجار المسلمين.
- أصبحت المدينة مركزاً لتعليم اللغة العربية والقرآن الكريم، مما مهد الطريق لظهور حركة المرابطين لاحقاً.

**3. نقطة التحول: السيطرة الغانية ثم المرابطية**

علاقة أودغشت بجيرانها كانت متذبذبة:

- **النفوذ الغاني:** في فترات ضعف قبائل صنهاجة، تمكنت **إمبراطورية غانا** (الوثنية آنذاك) من فرض سيطرتها على أودغشت لجباية الضرائب من تجارة الذهب.
- **الفتح المرابطي (1054م):** يُعتبر هذا التاريخ مفصلياً، حيث استعادها **عبد الله بن ياسين** وجيش المرابطين من قبضة غانا، وأعلنوا فيها تطبيق الأحكام الإسلامية بصرامة، لتصبح المدينة قاعدة انطلاق كبرى لدولة المرابطين نحو الشمال (المغرب والأندلس) ونحو الجنوب.

بعد تراجع حركة التجارة وتغير الطرق القوافل نحو مدن جديدة مثل **ولاته** و**تمبكتو**، وبسبب الحروب المتكررة والجفاف، بدأت أودغشت في الاندثار حتى أصبحت اليوم مجرد أطلال أثرية تُعرف بـ **"أوداغست"** في ولاية الحوض الغربي بموريتانيا.

**ملاحظة تاريخية:** يقول المؤرخون إن أودغشت كانت في أوجها تضم خليطاً مدهشاً من الأعراق (بربر، عرب، وسود)، مما جعلها نموذجاً مبكراً للتعايش المبني على المصالح التجارية والقيم الدينية المشتركة.

**2/ مدينة آزكي:** مدينة **آزكي** (والتي تُكتب في المصادر الجغرافية القديمة أيضاً **أزقي**، وتُعرف اليوم تاريخياً وأثرياً باسم **آزويكي** أو **أزوكي**). وهي إحدى أهم الحواضر الصحراوية القديمة التي لعبت دوراً محورياً في تاريخ السودان الغربي.

*** آزكي قبل عصر المرابطين: "حصن صنهاجة وبوابة السودان"**

كانت آزكي تمثل نقطة ارتكاز جغرافية وبشرية حاسمة على تخوم الصحراء الكبرى (في منطقة آدرار بموريتانيا الحالية)، وكانت ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمسالك السودان الغربي.

- **المركز القبلي:** كانت المعقل الرئيسي لقبائل **لمتونة** و**مسوفة** (من فروع قبائل صنهاجة الكبرى) التي أحكمت سيطرتها على دروب الصحراء.
- **المحطة التجارية الأولى:** وصفها الجغرافيون القدامى (مثل البكري) بأنها "أول مراقي الصحراء". ورغم أنها لم تكن مدينة ضخمة، إلا أنها كانت متحضرة ومحطة استراتيجية لا غنى عنها للقوافل المتجهة جنوباً نحو ممالك السودان الغربي (مثل غانا وتكرور).
- تعبير "أول مراقي الصحراء" هو وصف بليغ ودقيق جداً استخدمه الجغرافيون المسلمون القدامى (مثل أبي عبيد البكري) لوصف الموقع الاستراتيجي لمدينة آزكي (أزوكي).
- لفهم هذا الوصف، يمكننا تفكيكه من ثلاثة جوانب رئيسية:
- 1. المعنى اللغوي: "العتبة الأولى"
- كلمة "مراقي" هي جمع "مَرْقَى" أو "مِرْقَاة"، وتعني مكان الصعود أو درجات السُلَّم. باستخدام هذا اللفظ، كان الجغرافيون يقصدون أن المدينة هي "البوابة" أو "العتبة الأولى" التي يطأها المسافر. بالنسبة للقوافل القادمة من الشمال (المغرب العربي)، كانت آزكي تمثل أول درجة من درجات الاستقرار الحضري بعد عبور بحر الرمال القاحل، وقبل التوغل العميق في "بلاد السودان".
- 2. المعنى التضاريسي: "الصعود إلى الهضبة"
- هذا الوصف ليس مجازياً فحسب، بل هو دقيق جغرافياً:
- تقع أطلال آزكي اليوم في منطقة هضبة آدرار (في الشمال الموريتاني).
- هذه المنطقة عبارة عن سلسلة جبلية صخرية ومرتفعة تحيط بها الكثبان الرملية من كل جانب.
- عندما كانت القوافل تصل إليها، كان عليها أن "ترتقي" وتصعد في هذه المسالك الجبلية للوصول إلى واحات النخيل وينابيع المياه العذبة، مما يجعلها "مرقى" بالمعنى الحرفي للكلمة.

- 3. المعنى التجاري والأمني: "محطة التقاط الأنفاس"
- الصحراء الكبرى كانت بمثابة محيط واسع وخطير، والمدن فيها كالجزر.
- للقادمين من الشمال: كانت آزكي أول حصن آمن تتزود منه القوافل بالماء والتمر وترتاح فيه تحت حماية قبائل "لمتونة" الصنهاجية القوية.
- للقادمين من الجنوب: كانت نقطة التجمع الأخيرة لتنظيم القوافل الضخمة قبل اقتحام "المفاوز" (الصحاري المهلكة) نحو سجلماسة والمغرب الأقصى.
- باختصار، وصفها بـ"أول مراقي الصحراء" يعني أنها كانت الميناء البري الأول، والحصن الجبلي المرتفع الذي يربط بين عالمين: عالم الشمال الإفريقي وعالم السودان الغربي.
- **طبيعة الحياة:** اعتمدت قبل الاحتكاك الإسلامي المباشر والمكثف على حماية القوافل التجارية، واستغلال واحات النخيل، وكانت تشكل الحد الفاصل بين نفوذ قبائل الصحراء وممالك السودان الغربي الوثنية في ذلك الوقت.

***. آزكي أثناء الاحتكاك الإسلامي: "عاصمة المرابطين الجنوبية"**

التحول الجذري في تاريخ "آزكي" ارتبط بظهور **حركة المرابطين** في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، حيث تحولت المدينة من محطة قوافل إلى عاصمة سياسية، وعسكرية، ودينية.

**التطور العسكري والسياسي**

- **عاصمة الصحراء:** عندما انقسمت قيادة المرابطين بين الشمال (المغرب والأندلس بقيادة يوسف بن تاشفين) والجنوب، اتخذ القائد **أبو بكر بن عمر اللمتوني** مدينة "آزكي" حاضرة لملكه وعاصمة له في الصحراء.
- **قاعدة الانطلاق نحو السودان الغربي:** من آزكي، انطلقت الجيوش المرابطية لفتح بلاد السودان الغربي ونشر الإسلام فيها، وتكللت هذه الجهود بإسقاط عاصمة إمبراطورية غانا القديمة. وقد أمر أبو بكر بن عمر ببناء "حصن لمتونة" الشهير فيها لحمايتها وإدارة عملياته منها.

**الازدهار العلمي والديني**

- لم تكن آزكي مركزاً عسكرياً فحسب، بل أصبحت منارة علمية في قلب الصحراء. استجلب المرابطون العلماء من القيروان والأندلس لتعليم سكان الصحراء والسودان أمور دينهم.

- من أشهر هؤلاء العلماء **القاضي أبو بكر المرادي الحضرمي**، وهو فقيه أندلسي رافق أبا بكر بن عمر اللمتوني، واستقر في "آزكي" بأمر منه ليتولى قضاءها حتى وفاته فيها سنة 489 هـ، مما يعكس تحول المدينة إلى مركز إشعاع فقهي وقانوني.

**3. الدور الاقتصادي كشريان نابض**

في أوج ازدهارها الإسلامي، أصبحت آزكي عقدة تجارية تغذي الغرب الإسلامي:

- كانت القوافل تعبر منها محملة بالملح المستخرج من مناجم الصحراء (مثل تغازة)، لتقايضه بالذهب والسلع القادمة من بلاد السودان.
- تميزت المدينة بوجود زراعة محلية، وبساتين، ونظام ري يدعم المسافرين والجيوش، مما جعلها واحة استقرار نادرة في تلك البيئة الصحراوية القاسية.

تراجعت أهمية "آزكي" تدريجياً مع تغير مسارات التجارة الصحراوية نحو مدن أخرى شرقية مثل "ولاته" و"تمبكتو" في القرون اللاحقة، ومع ضعف نفوذ المرابطين. واليوم، تقف أطلال **"آزويكي"** بأسوارها الحجرية المتآكلة في الشمال الموريتاني كشاهد صامت على المدينة التي كانت البوابة الرئيسية لدخول الإسلام إلى قلب الغرب الإفريقي.

**3/ وارجلان:** (ورقلة الحالية)، التي لُقبت بـ**"سلطانة الواحات"**. كانت هذه المدينة تاريخياً بمثابة الشقيقة الكبرى لمدن مثل أودغشت وآزكي، حيث شكلت الضلع الشمالي الشرقي لشبكة التجارة الصحراوية.

*** وارجلان قبل الإسلام: "موطن بني وركلا"**

قبل وصول الفتوحات الإسلامية، كانت وارجلان عبارة عن تجمع لواحات غناء تسكنها قبائل بربرية عريقة.

- **الأصول والاسم:** يعود اسمها إلى قبيلة **"بني وركلا"** (أو ورجلان)، وهم فرع من قبائل **زناتة** البتراء. كانت هذه القبائل تمارس حياة شبه مستقرة تعتمد على زراعة النخيل في المنخفضات الغنية بالمياه الجوفية.
- **البيئة الجغرافية:** كانت المنطقة عبارة عن "شطوط" (منخفضات ملحية) تحيط بها رمال "العرق الشرقي الكبير". هذا الموقع جعلها منعزلة ومحمية طبيعياً، مما سمح لثقافة محلية قوية بالتشكل بعيداً عن تأثيرات القرطاجيين أو الرومان التي اقتصرت غالباً على السواحل.
- **النشاط الاقتصادي البدائي:** اعتمد السكان على نظام ري تقليدي بسيط للزراعة، وكانت المدينة محطة استراحة للرحل المقايضين للمنتجات الزراعية بالحيوانية.

**2. احتكاك المسلمين بوارجلان: "عصر التأسيس والازدهار"**

بدأ الاحتكاك الفعلي في القرن الأول الهجري، لكن التحول الحقيقي حدث مع استقرار الجماعات الإسلامية التي فرت من الصراعات السياسية في المشرق والقيروان.

**أ- الاستقرار الإباضي وتأسيس المدينة (القرن 2 هـ / 8 م):**

- بعد سقوط الدولة الرستمية في "تيهرت"، لجأ الكثير من أتباع المذهب الإباضي إلى واحات ورقلة.
- تم بناء **"قصر ورقلة"** القديم (القصبة)، وأصبحت المدينة مركزاً سياسياً ودينياً هاماً. وبسبب طبيعة المذهب الإباضي الذي اهتم بالتجارة والعدالة الاجتماعية، تحولت وارجلان إلى مدينة منظمة بشكل مذهل.

**ب- الازدهار التجاري (القرن 4 - 6 هـ):**

- **بوابة الذهب:** أصبحت وارجلان المنافس الشمالي لمدينة "سجلماسة". كانت القوافل تنطلق منها مباشرة نحو "تادمكة" ومنها إلى "أودغشت" و"إمبراطورية غانا".
- **سوق الرقيق والذهب والملح:** وصفها الجغرافيون بأنها كانت سوقاً عالمية؛ حيث يجتمع فيها تجار من القيروان، مصر، وبلاد السودان.
- **الوصف الجغرافي (ابن حوقل والبكري):** ذكروا أنها مدينة ذات أسوار من طوب، بها أسواق حافلة، وجوامع، وبساتين نخل لا تُحصى، وتميزت بكثرة مياهها التي كانت تخرج من عيون طبيعية قوية.

*** . التطور العمراني والاجتماعي**

أثناء الاحتكاك الإسلامي، شهدت وارجلان تطوراً فريداً في نظام السكن والري:

- **نظام الفقارات:** طور المسلمون تقنيات متقدمة لسحب المياه من باطن الأرض (الفقارات)، مما ضاعف مساحات النخيل وجعلها "غابة في قلب الرمل".
- **التنوع السكاني:** ضمت المدينة بربر زناتة، وعرباً مهاجرين، وأفارقة من جنوب الصحراء، مما خلق نسيجاً اجتماعياً منفتحاً ومتسامحاً يتمحور حول النشاط التجاري.

**مقارنة سريعة (وارجلان vs أودغشت)**

| أودغشت | وارجلان (ورقلة) | وجه المقارنة |
|---|---|---|
| جنوب الصحراء (موريتانيا) | شمال الصحراء (الجزائر) | **الموقع** |
| مركز استلام وتوزيع للجنوب | مركز تجميع وتصدير للشمال | **الدور التجاري** |

| وجه المقارنة | وارجلان (ورقلة) | أودغشت |
|---|---|---|
| **التأثير المذهبي** | غلب عليها الطابع الإباضي | غلب عليها الطابع السني المالكي (المرابطون) |
| **المصير** | لا تزال مدينة حية وعامرة | أصبحت أطلالاً أثرية (آزويكي) |

وارجلان لم تكن مجرد مدينة، بل كانت **"عقدة الوصل"** التي لولاها لما استطاع المسلمون الربط بين حوض المتوسط وأعماق إفريقيا. لقد حول الاحتكاك الإسلامي هذه الواحة المنعزلة إلى إمبراطورية تجارية صمدت لقرون.

4/ **إقليم توات**: يُعد إقليم **توات** (في الجنوب الغربي الجزائري حالياً) واحداً من أكثر المناطق إثارة للدهشة في تاريخ الصحراء الكبرى. فهو لم يكن مجرد مدينة، بل "أرخبيل من الواحات" وسط بحر من الرمال، لُقب بـ**"مفتاح السودان"** و **"حلقة وصل القوافل"**.

*** توات قبل الإسلام: "حضارة القصوروالفقارات"**

قبل وصول العرب والمسلمين، كانت توات مأهولة بمجموعات بشرية استطاعت تطويع القسوة الجغرافية بذكاء شديد.

- **السكان الأصليون:** استوطنت الإقليم قبائل **زناتة** ، إلى جانب مجموعات من **الأفارقة (الحراطين)** الذين برعوا في الزراعة. كما تشير بعض الروايات التاريخية إلى وجود جليات يهودية قديمة استقرت في بعض قصورها (مثل "تمنطيط") للعمل في التجارة والصياغة.
- **نظام الفقارات (الهندسة المائية):** قبل الإسلام بفترات طويلة، بدأ سكان توات في ابتكار أو تطوير نظام **"الفقارات"**، وهو تقنية معقدة لجلب المياه من طبقات الأرض العميقة وتوزيعها عبر قنوات دقيقة. هذا النظام هو الذي سمح بنشوء "القصور" (القرى المحصنة) وسط الصحراء.
- **الوضع السياسي:** كانت المنطقة عبارة عن "قصور" مستقلة ومنعزلة، تفتقر إلى سلطة مركزية، وتعتمد على التحالفات القبلية لحماية طرق القوافل البدائية.

***توات أثناء الاحتكاك الإسلامي: "عصر التدويل والتجارة"**

مع وصول الفتوحات الإسلامية وتوسع الدولة في المغرب والأندلس، تحولت توات من منطقة واحات معزولة إلى **مركز ثقل عالمي**.

**أ- الفتح والاستقرار (القرون 1 - 3 هـ):**

لم تُفتح توات بجيوش جرارة، بل دخلها الإسلام عبر **التجار والفقهاء** الذين سلكوا طريق "سجلماسة - توات". اعتنق سكانها الإسلام تدريجياً، وأصبحت القصور تضم مساجد وزوايا تحولت لاحقاً إلى مراكز علمية.

**ب- توات كـ "ميناء بري" (القرن 4 - 9 هـ):**

بلغت توات أوج ازدهارها مع تطور تجارة القوافل بين شمال إفريقيا (المغرب وتلمسان وتونس) وبين ممالك السودان الغربي (مالي، سنغاي، كانم برنو).

- **تمنطيط (العاصمة التجارية):** برزت مدينة "تمنطيط" كأهم مركز في توات، ووُصفت بأنها "بغداد الصحراء" لكثرة علمائها وقصورها وأسواقها.
- **السلع المتبادلة:** كانت توات هي النقطة التي يتم فيها "تغيير الجمال" وتنظيم القوافل الكبرى المحملة بالملح والمنسوجات والتمور صعوداً، والذهب والريش والعاج نزولاً.

**ج- الإشعاع العلمي والديني:**

أصبحت توات مركزاً لـ **"المدارس العلمية الصحراوية"**. بفضل الاحتكاك بالعلماء المهاجرين من الأندلس والمغرب، تأسست فيها خِزانات كتب ضخمة (لا يزال بعضها موجوداً حتى اليوم في زوايا "أدرار").

- انتشر فيها المذهب المالكي الذي نظم المعاملات التجارية والمالية المعقدة بين التجار من مختلف الجنسيات.

***. التطور العمراني (نظام القصور)**

خلال العصر الإسلامي، تطور شكل "القصر" في توات ليصبح نموذجاً معمارياً فريداً:

1. **المسجد:** يقع في القلب كمركز روحي وتعليمي.
2. **السوق:** بجوار المسجد لتنظيم التجارة القادمة من "أودغشت" و"تمبكتو".
3. **الأسوار الحصينة:** لحماية المحاصيل والأموال من غارات البدو الرحل.
4. **البيوت الطينية:** المصممة بذكاء لمواجهة الحرارة الشديدة (العمارة الترابية).

**لماذا تميزت توات عن غيرها؟**

بينما كانت مدن مثل "أودغشت" تختفي، كانت توات تزداد قوة لسببين:

- **الأمن المائي:** نظام الفقارات الذي طوّره المسلمون وحموه بقوانين فقهية دقيقة (فقه المياه).

- **الموقع الجغرافي العبقري:** تقع توات في "منتصف الطريق" تماماً؛ فلا يمكن لقافلة متجهة من سجلماسة إلى تمبكتو أو غاو أن تتجاوزها.

**خاتمة:**

تحولت توات بفضل الاحتكاك الإسلامي من مجرد "محطات رعي" إلى **"جمهورية تجارية وفقهية"** مصغرة، حيث كانت الكلمة العليا فيها للقاضي والتاجر، وليس للمحارب فقط.

## معلومات اضافية

**وثيقة تمنطيط:**

**ما هي وثيقة تمنطيط؟**

**ليست مجرد ورقة واحدة، بل هي مجموعة من الأحكام الفقهية والنوازل (الفتاوى القانونية) التي صاغها علماء الإقليم، وعلى رأسهم الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي وعلماء أسرة العصنوني.**

**كان الهدف منها الإجابة على سؤال جوهري: كيف ندير مدينة تجارية عالمية في قلب صحراء قاحلة؟**

**2. المحاور الرئيسية التي نظمتها الوثيقة**

**ركزت هذه التنظيمات على ثلاثة أعمدة جعلت من تمنطيط "دولة مؤسسات" مصغرة:**

**أولاً: فقه المياه (قانون الفقارات)**

**بما أن الماء في توات أغلى من الذهب، وضعت الوثيقة قوانين صارمة ودقيقة جداً:**

- **توزيع الحصص: تحديد "الأثر" (وحدة قياس زمنية لجريان الماء) لكل مزارع.**
- **الصيانة الجماعية: إلزام أصحاب القصر بالمشاركة في تنظيف القنوات الجوفية.**
- **حق الارتفاق: منع أي شخص من حفر بئر جديدة تؤثر على منسوب مياه "الفقارة" القديمة.**

**ثانياً: فقه الأسواق والتجارة**

**تمنطيط كانت سوقاً مفتوحة للعرب، البربر، الأفارقة، واليهود. لذا نظمت الوثيقة:**

- **المكاييل والموازين: توحيد الصاع والمد لضمان عدم الغش بين التجار الدوليين.**
- **تأمين القوافل: وضع نظام "الخفارة" (الحماية) مقابل رسوم معلومة، مما جعل التاجر يأمن على ماله داخل حدود الإقليم.**
- **فض النزاعات: إنشاء مجلس "جماعة القصر" للفصل السريع في الخلافات التجارية قبل رحيل القوافل.**

ثالثاً: العمارة والخصوصية

- نظمت الوثيقة طرق بناء القصور، من حيث عرض الأزقة (بما يسمح بمرور الجمال المحملة) وارتفاع الجدران لضمان خصوصية البيوت، مما خلق ذلك النمط المعماري الطيني المذهل الذي نراه اليوم.

3. دور الشيخ المغيلي (القرن 9 هـ / 15 م)

لا يمكن ذكر تمنطيط دون الإمام المغيلي التلمساني. لقد كان "المهندس الاجتماعي" لإقليم توات:

- نقل الإقليم من مجرد محطة تجارية إلى مركز مرجعي للدولة الإسلامية في السودان الغربي.
- امتد تأثير فتاواه وتنظيماته من تمنطيط إلى "كانو" في نيجيريا و"غاو" في مالي، حيث كان مستشاراً لملوكها (مثل أسكيا محمد).

4. تمنطيط اليوم: "المتحف المفتوح"

إذا زرت تمنطيط اليوم، ستجد أن أثر هذه الوثيقة لا يزال حياً:

- الخزانات: لا تزال الزوايا تحتفظ بمخطوطات نادرة توثق هذه القوانين.
- الفقارات: لا يزال بعضها يعمل بنفس النظام الذي وُضع قبل مئات السنين.
- الصناعة: تشتهر حتى الآن بصناعة "الفخار الأسود" الذي كان يُصدر قديماً عبر القوافل.

خاتمة:

لقد أثبتت تمنطيط و إقليم توات أن الصحراء لم تكن عائقاً أمام التحضر، بل كانت دافعاً لابتكار أنظمة قانونية وهندسية سَبقت عصرها، مما جعلها بحق "سجلماسة الصغرى" وقلب التجارة الذهبية.

## المحاضرة 4 / الفاعل الصحراوي — القبائل الصنهاجية كواسطة عقد وجسر جيوسياسي بين الغرب الإسلامي والسودان الغربي

### مقدمة المحاضرة

الصحراء الكبرى لم تكن عائقاً أو» بحرًا ميتًا«، مثلما تصوره أو حاول البعض تصويره .الحقيقة التاريخية تثبت أن الصحراء كانت فضاءً للربط، همزة وصل — بحر داخلي يربط بين القبائل والمناطق المحيطة به، والقبائل الصحراوية) خاصة صنهاجة اللثام (كانت هي المحرك الملاحي لهذا الفضاء، فالصحراء ليست مجرد رمال، بل جسر تاريخي حضاري بين الحضارات

### تعريف القبائل الصنهاجية

واحدة من أهم وأكبر قبائل البربر في شمال إفريقيا.

الانتشار الجغرافي :المغرب الأوسط والأقصى والصحراء الكبرى.

إزناكن) صنهاجة :(الاسم البربري الأصيل للقبائل الصنهاجية.

### تاريخ القبائل الصنهاجية

الموطن الأصلي :استقرت قبائل صنهاجة في بدايتها شمال الصحراء الكبرى.

الانتشار جنوباً :بعد وصول الإسلام أصبحوا منتشرين في بلاد السودان) السنغال والنيجر.(

الدولة المرابطية :أسسوا الدولة المرابطية في القرن الحادي عشر الميلادي) القرن11 م.(

التأثير الحضاري :لعبوا دوراً محورياً في نشر الإسلام وتنشيط التجارة عبر الصحراء.

### البنية السوسيولوجية واللوجستية للقبائل الصحراوية

لم تكن القبائل الصحراوية مجرد مجموعات بدوية عابرة، بل كانت تمثل» السيادة اللوجستية «على الطرق التجارية.

ثالوث القوة) لمتونة، جدالة، مسوفة — (خارطة التوزع القبلي:

-لمتونة في آدرار) موريتانيا الحالية.(

-جدالة على الساحل الأطلسي.

-مسوفة التي سيطرت على محاور القوافل الشرقية.

اقتصاد» الحماية والقافلة :«نظام» الخفارة) «أي تأمين القوافل مقابل رسوم(، وهو ما جعل القبيلة الصحراوية» شريكاً اقتصادياً «لا غنى عنه للدول في الشمال) الأدارسة، الأمويين في الأندلس (والممالك في الجنوب) غانا.(

### الجغرافيا :مواقع القبائل الصنهاجية

الحد الغربي :نول.

الحد الشرقي :غذامس.

الحد الشمالي :البحر الأبيض المتوسط.

الحد الجنوبي :السودان) السنغال والنيجر.(

الامتداد الجغرافي حسب ابن خلدون :من حوض النيجر جنوباً) بلاد السودان (إلى البحر الأبيض المتوسط شمالاً، ومن الأطلسي غرباً إلى غدامس شرقاً.

**المدن الصحراوية الكبرى**

مدينة نول لمطة :ظهرت في القرن الخامس الهجري11 / م مع المرابطين.

مدينة تكاوست :بدأت تبرز على ساحة الأحداث منذ القرن السابع13 / م.

مدينة كلميم :تسلمت المشعل وبدأت تظهر أهميتها التجارية منذ القرن الثامن عشر وخصوصاً في القرن التاسع عشر.

من أهم خصائص هذه المدن أنها» كانت عبارة عن محطات طرقية باتجاه إفريقيا جنوب الصحراء، فعبرها انسابت القوافل الصحراوية من وإلى ما وراء الصحراء حاملة البضائع والأفكار.«

كما أن مدن المنطقة لعبت دوراً رياديًا في جعل تجارة الصحراء رافداً مهماً من روافد تجارة البحر المتوسط.

**خريطة توزيع القبائل الصنهاجية**

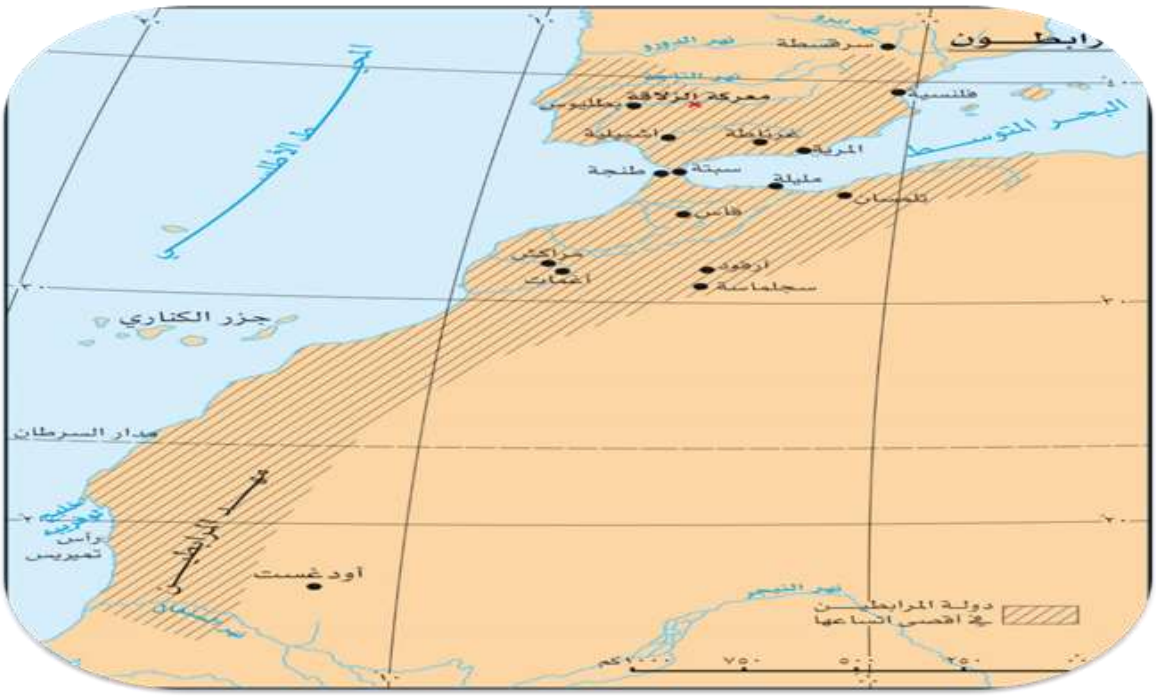

لمتونة ـــ المنطقة :وادي نول – رأس بوجدور.

جدالة ـــ المنطقة :قرب السنغال والنيجر.

لمطة ـــ المنطقة :سهل وادي نون.

مسوفة ـــ المنطقة :سجلماسة – أودغشت.

جزولة ـــ المنطقة :ساحل المحيط الأطلسي.

مداسة ـــ المنطقة :وسط الصحراء.

بنو وارث ـــ المنطقة :شمال شرق الصحراء.

تارجة ـــ المنطقة :شمال غرب الصحراء.

**/1قبيلة جدالة**

منهم الزعيم الروحي للمرابطين عبد الله بن ياسين الجزولي.

من أهم قبائل الملثمين، وأكثرهم عدداً.

شكلوا قوة عسكرية هامة والزعامة الدينية الرئيسية، مضاربهم قرب السنغال والنيجر وسواحل الأطلسي.

الدور الاقتصادي :سيطرة على طرق تجارة الذهب والملح عبر الصحراء.

أقرب الملثمين إلى الممالك السودانية) بينهما ستة أيام حسب البكري.(

الطريق الساحلي من نول لمطة للسودان الغربي يمر عبر مضاربهم.

مملحة أوليل التي عززت أهمية مجالهم.

المنطقة :السنغال – النيجر – الأطلسي.

**/2قبيلة لمتونة**

منهم يوسف بن تاشفين مؤسس الدولة المرابطية الكبرى.

أهم وأقوى قبائل الملثمين.

القوة العسكرية والسياسية الأساسية، امتدادهم من وادي نون على المحيط الأطلسي حتى رأس بوجدور في الصحراء الغربية.

الموقع الاستراتيجي :تلي منطقتي لمطة وجزولة ـــ على الطريق إلى أودغشت.

مجال استراتيجي تخترقه عديد القوافل التجارية.

أودغشت حاضرة صنهاجة الصحراء ضمن النفوذ اللمتوني) همزة وصل بين المنطقتين.(

قريبة من مجالات السوننكة.

المنطقة :وادي نول – رأس بوجدور.

**/3قبيلة مسوفة**

أحد أهم قبائل صنهاجة، من البطون البدوية الكبرى.

الموقع الجغرافي :يرى كيوك أن موطنهم الأصلي هو منطقة تندوف الجزائرية، بدأت توسعاتهم خارجه منذ القرن2 هـ8 / م.

مضاربهم تمتد بين سجلماسة شمالاً وأودغشت جنوباً.

مجال مهم بسبب المسالك الصحراوية التي تخترقه.

وجود مملحة تغازة) كانت تجذب تجار الغرب الإسلامي المتوجهين نحو السودان.(

اشتغال المسوفيين في خفارة القوافل والعمل كأدلة لها.

المنطقة :سجلماسة – أودغشت.

**/4قبيلة لمطة**

تقابلها كلمة إلمتين.

لم يتفق المؤرخون حول نسبتها إلى صنهاجة) أنظر مثلاً رحلة التجاني ص.(216

من أشهر مدنهم نون للمطة بالسوس الأقصى، بالإضافة إلى مدينة آزكي.

ذكر ابن خلدون أن موطنهم ما بين السوس وما يليه من بلاد الصحراء.

كانت لهم هجرات على غرار هجرتهم في القرن2 هـ إلى مدينة كوكو.

ذكرت المصادر) البكري (أنهم في بعض المحطات قطعوا الطرق على القوافل.

وفّرت مدنهم للتجار مستلزمات الرحلة، وساهموا في نقل القوافل وخدماتها.

أهم البطون :منهم بنو وارث، بنو صولان، بنو ناسجة، وغيرهم.

المنطقة :نول شمال الصحراء – وادي نون.

**/5قبيلة مداسة**

من بطون صنهاجة الصحراء الكبرى.

ذكر اليعقوبي أنهم أغلب ساكنة السوس الأقصى، ثم حدد البكري والإدريسي مجالهم في ق5 هـ بين مملكة غانة ومملكة كوكو في السودان الغربي — ربما بسبب الهجرات والحروب.

من أبرز مدنهم :رأس الماء، تيرقي، رتنيس، بوغرات، ومداسة.

مجالهم يتداخل مع بعض مناطق السودان الغربي عند الثنية الكبرى لنهر النيجر.

لعبوا دوراً مهماً في التجارة عبر الصحراء.

معبراً أساسياً للثقافة) المثاقفة (بين الغرب الإسلامي والسودان الغربي.

أهم البطون :منهم بنو عمران، بنو محمد، وغيرهم.

المنطقة :وسط الصحراء الكبرى.

**/6قبيلة جزولة**

الموقع الساحلي :على طول ساحل المحيط الأطلسي في المغرب وموريتانيا.

تجارة الملح :شاركت في تجارة الملح الصحراوية ومناجم الملح في إيجيبل.

المنطقة :ساحل المحيط الأطلسي – المغرب وموريتانيا.

**/7قبيلة تارجة) تاركا(**

من مدنهم تامدلت وترغة.

من بطون صنهاجة الصحراوية.

الموقع الجغرافي :استوطنوا في شمال غرب الصحراء على الساحل الأطلسي.

الدور التجاري :لعبوا دوراً مهماً في التجارة عبر الصحراء، من خلال حماية القوافل من اللصوص والقراصنة.

ذكر البكري أن بناء مدينة سجلماسة سنة140 هـ757 / م كان بسبب زوال وخراب مدينة ترغة التي تعتبر من حواضرهم القديمة.

المنطقة :شمال غرب الصحراء.

**/8قبيلة بنو وارث**

من بطون صنهاجة الكبرى.

الموقع الجغرافي :استوطنوا في شمال شرق الصحراء الكبرى.

الدفاع عن القوافل :لعبوا دوراً مهماً في حماية طرق القوافل التجارية.

ساهموا في نشر الإسلام في المنطقة، وهم من أوائل صنهاجة الصحراء إسلاماً —— منهم من أرجع إسلامهم إلى حملة عقبة الاستطلاعية.

المنطقة :شمال شرق الصحراء.

**الدولة المرابطية ودور القبائل الصنهاجية**

المؤسس الأول :عبد الله بن ياسين الجزولي — من قبيلة جدالة.

القائد العظيم :يوسف بن تاشفين اللمتوني — من قبيلة لمتونة.

السيطرة الجغرافية :المغرب الأقصى والأندلس وغرب إفريقيا.

نشر الإسلام :نشر الإسلام في السودان الغربي والسودان الأوسط.

القبائل المؤسسة :لمتونة، جدالة، مسوفة، لمطة، جزولة.

الامتداد :المغرب – الأندلس – غرب إفريقيا.

**القبائل الصنهاجية كجسر جيوسياسي بين الغرب الإسلامي والسودان الغربي**

وسيط تجاري :حركة القوافل بين الشمال والجنوب.

حامي للطرق :أمن القوافل من القرصنة.

ناقل ثقافي :انتقال اللغة العربية والعلوم.

ناشر للإسلام :تبليغ الدعوة في السودان الغربي.

ربط بين الحضارات الإسلامية والأفريقية.

**طرق التجارة الصحراوية — المحاور الرئيسية**

الطريق إلى تمبكتو :المسار من المغرب إلى مدينة تمبكتو في مالي.

الطريق إلى أودغشت :المسار من سجلماسة إلى أودغشت في موريتانيا.

نقل الذهب :من مناجم السودان الغربي إلى الغرب الإسلامي.

ربط المغرب بغرب إفريقيا :المغرب كمنفذ تجاري رئيسي للسودان الغربي.

**دور القبائل الصنهاجية في التجارة**

حماية القوافل :توفير الحماية من هجمات اللصوص والقراصنة.

توفير الأمن :ضمان أمن الطرق التجارية العابرة للصحراء.

الوساطة التجارية :تنظيم التجارة بين التجار من الجانبين.

البضائع المتداولة :الذهب — الملح — الرقيق.

قوافل الصحراء :حركة مستمرة عبر العصور.

**العرب الذين استوطنوا المنطقة في العصر الوسيط**

الهجرة العربية إلى الصحراء الغربية — القرن 7 الهجري13) م :(بداية الاستقطاب العربي للصحراء الغربية.

قبائل بنو هلال :قبيلة عربية هوازنية قيسية مضرية عدنانية.

قبائل بنو معقل :من أوفر قبائل العرب في المغرب الأقصى.

مسار الهجرة :من بلاد الشام ومصر إلى شمال إفريقيا ثم الصحراء.

**دور العرب في الجسر الجيوسياسي**

اللسان العربي الحساني :تكوين لهجة عربية فريدة في المنطقة الصحراوية.

تغيير التركيبة السكانية :دمج القبائل العربية مع القبائل الصنهاجية.

استمرار التجارة :المحافظة على حركة التجارة عبر الصحراء.

نشر العربية والإسلام :تطوير العلاقات الثقافية بين الغرب الإسلامي والسودان.

**انتشار الإسلام في السودان الغربي — الدور الحضاري والديني**

الدولة المرابطية :الدور المحوري في نشر الإسلام والفقه المالكي.

المؤسسات التعليمية :إنشاء المدارس والزوايا والكتاتيب.

مراكز علمية :تأسيس مراكز تعليمية في مدن تمبكتو وأودغشت.

الانتشار السلمي :التحول للإسلام عن طريق التجار والمساواة.

**التأثير الحضاري للقبائل الصنهاجية**

النظام السياسي :تغيير نظم الحكم والإدارة.

النظام الاجتماعي :تحويل العادات والتقاليد.

اللغة العربية :انتشار العربية والفقه المالكي.

النظام الاقتصادي :تطوير التجارة والاقتصاد.

تأثير عميق في العلاقات بين الحضارات الإسلامية والأفريقية.

**الخاتمة — الإرث التاريخي للقبائل الصنهاجية**

جسر جيوسياسي :دور محوري في الربط بين الغرب الإسلامي والسودان الغربي.

ربط الحضارات :نقطة التقاء الحضارات الإسلامية والأفريقية.

نشاط التجارة :تطوير شبكة تجارية عابرة للصحراء.

أثر تاريخي :غيّرت نظم العيش وأثّرت بشكل عميق في تاريخ المنطقة.